عمير بيرتس وزير دفاع فاشل وهذا سيجعله يفشل كذلك في قيادة حزبه

حماس تصوغ مبادرة جنيف خاصة بها من اجل رفع المقاطعة الاوروبية

■ «فلتذهب مسيرتي المهنية الى الجحيم»، قال لي احد كبار قادة هيئة الاركان في هذا الاسبوع. «في نهاية المطاف سنتحول كلنا الى لافتة صغيرة في آخر رواق جانبي».

هذا تجسيد واحد من تعابير كثيرة لمشاعر الاحباط التي تستشري في قيادة الجيش الاسرائيلي. جهاز الدفاع يمر الآن في احدى الفترات الأكثر غرابة في تاريخه. للوهلة الاولى يبدو ان كل شيء على ما يرام. بعد الحرب شكل الجيش 50 لجنة تحقيق. بعضها أنهى عمله والبعض الآخر في طور الانهاء. في الايام القريبة سيعقد رئيس هيئة الاركان اجتماعا لطاقم القيادة العامة لمدة يومين للتباحث في دروس الحرب. وزير الدفاع سيلقي خطابا، ورئيس هيئة الاركان سيقول كلمته ودروس الحرب ستتحول الى خطة عمل.

ولكن هناك فجوة سحيقة من تحت ذلك كله. وزير الدفاع يعمل اعمالا شاقة. في الطابق الرابع عشر من وزارة الدفاع حيث يوجد ديوانه تبقى الأضواء مشتعلة طوال النهار حتى ساعات الفجر الباكرة. يعكفون هناك على التحضير للحرب. ليست حربا مع ايران، لا سمح الله، ولا ايضا مع سورية، بل حربا حول منتسبي حزب العمل.

بامكان اسرائيل أن تتدبر أمرها مع وزير دفاع بوظيفة جزئية. في الفترات الطويلة التي كان فيها رئيس الوزراء (بن غوريون، اشكول، بيغن، رابين، بيريس، باراك) يتولى حقيبة الدفاع، لم يكن يكرس للمنصب أكثر من يومين في الاسبوع، ويومان آخران خُصما لانه لم يكن مضطرا لمنافسة وزير دفاع آخر.

من الأكثر صعوبة تدبر الامور عندما يكون وزير الدفاع غائبا ـ حاضرا. عمير بيرتس يجلس في المداولات العسكرية ويتثاءب. هو نام لفترة قليلة جدا ليس بسبب الضغوط أو الأعباء وانما بسبب السلوك الذي حمله معه من الساحة السياسية. يوم السياسي الاسرائيلي طويل واعماله قصيرة، وحتى عندما ينتهي جدوله الزمني الرسمي قُبيل الفجر، فهو يرفض الخروج من مكان العمل.

عندما جاء وقت بن غوريون للتحول من قائد سياسي الى قائد عسكري، قام بوضع كل انشغالاته جانبا، وقام بعملية دراسة معمقة وأجرى المقابلات مع الناس وقرأ الكتب والوثائق ودرس كل ما يتوجب عليه أن يدرسه حول الاحتياجات الأمنية. بيرتس يملك مزايا خاصة به، ولكنه لا يمتلك على ما يبدو الفضول الذي تميز به بن غوريون. هو سقط في داخل هذا المنصب ولم يتمكن في اطار العجالة من بلورة رؤيته الاستراتيجية. في هذا الاسبوع عقد لقاء ثانيا مع دان مريدور، الذي قام بعمل كبير لبلورة الرؤية الأمنية الاسرائيلية.

القرارات الفورية التي يضطر وزير الدفاع الى اتخاذها بعيدة عن قلبه، المواد الاستخبارية المكتوبة التي اضطرت أسلافه للجلوس عدة ساعات يوميا لقراءتها لا تثيره ولا تجذبه. الاسباب التي تطرح في القرارات حول عمليات الاغتيال الممركزة غريبة عليه. هذا أحد التناقضات في الحروب التي تديرها اسرائيل: مثلما قال لي أحد قادة «الشاباك» ذات مرة يتداولون اربع ساعات في كيفية تنفيذ عملية الاغتيال ويخصصون نصف دقيقة فقط لاختيار الشخص الذي سيتم اغتياله.

جهاز الدفاع يدير الآن معركته السنوية حول الميزانية. الوزير عادة يكون في هذه المعركة رأس الحربة. بيرتس يدخل المعركة كمن أصابه المس. الدبابة، هو يقول، لا تقف في مواجهة المجتمع. ولكن الحقيقة هي أن الدبابة تواجه المجتمع فعلا. هذه عصا ذات طرفين، وبيرتس يجد صعوبة في الامساك بها من المنتصف. بيرتس متمسك بالمنصب لانه مقتنع أنه اذا لم يكن وزيرا للدفاع فسيخسر في المنافسة على زعامة حزب العمل، وعندئذ سيخسر كل شيء. هو يُصر على الريادة من اجل حفنة قمح.

أسلافه ايضا لم يترفعوا عن التركيز على السياسات الحزبية. بعض تعييناتهم السياسية كانت فضائحية (رابين، مثلا، عين صهره عضوا في مجلس ادارة الصناعات الجوية)، ولكن اغلبيتهم حرصت على إبقاء السياسة في الهامش. أما عند بيرتس فالسياسة قد رفعت رأسها. المشكلة ليست في قراراته الفردية وانما في السيطرة على القرارات السياسية وعلى أجندته.

الجيش يريد بناء سجن عسكري في بيت نبالا. أهالي شوهم المجاورة غير راضين. رئيس مجلس شوهم، غال لفني، عضو حزب العمل، اشتكى فتم تجميد بناء السجن.

الجيش يسعى الى نقل مصنعه من بيت شآن الى مفترق غولاني. اللجنة العمالية احتجت وتم تجميد الخطوة (ايهود باراك وشاؤول موفاز قاما في السابق بخطوات مشابهة).

الجيش أراد شراء كميات كبيرة من الجيبات الامريكية. الميزانية لم تحصل على المصادقة بعد، ولكن عمال المصنع في الناصرة حيث يقومون بتركيب الجيب «سوفا» احتجوا بشدة. المصنع الاسرائيلي خفض التكلفة. الجيش قال حسنا، والآن سنرى اذا كانت لدينا ميزانية. ولكن أوامر بيرتس كانت حازمة: التوقيع على الاتفاق مع المصنع في الناصرة.

قبل اسابيع قليلة وصل وزير الدفاع لزيارة الصناعات الجوية. الصناعات الجوية كانت على الدوام ساحة لعب خاصة لوزراء الدفاع، ولكن بيرتس واجه مشكلة: رئيس مجلس العمال هناك هو (ليكود) حاييم كاتس، الذي كان شريكه في قائمة «عام أحاد» وتحول الى عدو له. ولكن لحسن الحظ يترأس اللجنة العمالية في فرع تحسين الطائرات «لاهف» حاييم أزولاي، خصم كاتس وحليف بيرتس.

من المهم لبيرتس أن يقوم عمال الصناعات العسكرية (أكثر من 3500 عامل) بالانتساب لحزب العمل والتصويت له. في الاسبوع الماضي صرح بيرتس عن خطة لدمج الصناعات العسكرية مع رفائيل. على الورق قد يؤدي هذا الدمج الى انقاذ الشركة التي تمر بمصاعب منذ سنوات طويلة. ولكن القرار خرج بتسرع من اليد الى الفم، واحتمالية تنفيذه ضئيلة جدا.

بيرتس تورط في سلسلة إقالات كانت كل واحدة منها مشروعة، ولكنها معا تضخمت لتصل الى مستوى القضية. هو أراد إزاحة افيغدور كهلاني الذي كان تعيينا سياسيا من الليكود، واخراجه من القسم الأمني ـ الاجتماعي في وزارة الدفاع (شعبة الشبيبة والناحل سابقا)، وتعيين يوئيل مهرشيك من الحركة الكيبوتسية بدلا منه. كما أراد أن يُقيل أمنون بن عامي، وتعيين الدكتور آفي بيتسور، من قادة «عام أحاد» مكانه.

خلال اشهر طويلة امتنع بيرتس عن تعيين مجالس ادارية للشركات الحكومية. الآن عندما أصبحت الانتخابات التمهيدية على الأبواب امتلأت القوائم بنشطاء الحزب. اغلبيتهم لن يُنتخبوا لانهم لا يمتلكون القدرات ولكن مع ذلك سيعرفون كيف يكتسبونها بعد الانتخابات في حزب العمل.

دخولهم القيادة السياسية أثار فضولا لا بأس به في العالم. لا تسنح الفرصة للقادة الاجانب بالالتقاء دائما مع قائد عمالي من الضواحي يحمل أفكارا حمائية. ولكن بيرتس أهدر ذلك ايضا. الاجانب يسمعون منه نفس الخطاب الدائم الذي لا يوجد بعده أي شيء تقريبا: لا يتبادل معهم الآراء ولا يهتم بما يحدث عند الآخرين. عندما كانت رايس هنا مؤخرا تجاوزت هذه الطقوس الجامدة التي يتبعها بيرتس وبدا أن الجانبين خرجا من اللقاء راضيين.

بيرتس محاط بمستشارين سياسيين بوظيفة أو من دون وظيفة. مستشارته الأكثر تأثيرا هي على الاغلب راحيل ترجمان. المشكلة هي أن الاستشارة السياسية التي يتلقاها بيرتس لا تفيده. قرار الدخول في مصيدة العسل التي أعدها له اولمرت في وزارة الدفاع كان خاطئا. الوضع الذي نشأ الآن يشير الى أن بيرتس لا يملك خيارا إلا أن يغرق كله حتى رأسه في صراع بقاء داخل حزبه. الطريقة التي يفعل بها ذلك تشير الى أنه لن يكون حتى وزير دفاع حقيقيا ولا مرشحا. في نهاية المطاف سيفقد كرامته كوزير دفاع ويخسر احتمالات الفوز.

مشكلة بيرتس تقود الكثيرين في الجيش وخارجه الى استنتاج بأن جنرالا متقاعدا فقط يستطيع ان يكون وزيرا للدفاع. في حزب العمل هناك اثنان حتى ثلاثة مرشحين على هذه الشاكلة إن لم نقل أكثر.

هذا خطأ. مقعد وزير الدفاع ليس حِكرا على العسكريين. هو مفتوح أمام الجميع تحت شرط واحد: هذا الكرسي ليس خُردة.

في اطار الصفقة التي عقدها بيرتس مع اولمرت، حصل في الآونة الأخيرة على رئاسة ثلاث لجان وزارية في الشؤون الاجتماعية. وزير كان قد التقى معه في نقاش في احدى اللجان قال لي بأن اسم بيرتس ينتعش. هو مطلع على المواد والمعلومات ويعرف الاشخاص ويُبدي الاهتمام. بعد ذلك يدخل الى النقاش الأمني ويغفو.

جنيف حماس

الصحافي الامريكي توماس فريدمان كتب في هذا الاسبوع لقراء «نيويورك تايمز» 15 قاعدة لمساعدتهم في فهم الواقع في الشرق الاوسط. القاعدة الاولى: في واشنطن يكذبون علانية، أما الحقيقة فيقولونها في السر، خارج السجلات. في الشرق الاوسط تكون اللعبة عكسية: ما يقولونه علانية يعبر عن النوايا الحقيقية، وفي الآذان يُحدثون الناس بما يريدون سماعه وليس بالحقيقة.

الورقة التي وصلت الى يدي في هذا الاسبوع هي نموذج كلاسيكي للغرابة الشرق اوسطية. هذه مسودة اتفاق سري صاغه وفد حماس برئاسة الدكتور احمد يوسف، مستشار رئيس الوزراء اسماعيل هنية، السياسي. الاتفاق تبلور في المحادثات التي أجراها الوفد مع جهات سويسرية وبريطانية ونرويجية. هنية أعطى موافقته. وفقا لمعلوماتي، خالد مشعل ايضا بارك الخطوة. مسودة اخرى مختلفة قليلا أُعدت قبل ايام قلائل. هذه الوثيقة تبدو وثيقة مذهلة في اعتدالها. «جنيف حماس»، كما سماها أحد المراقبين الفلسطينيين. العنوان هو «اقتراح لبلورة شروط ملائمة لانهاء الصراع». حماس تقترح الاعلان عن خمس سنوات هدنة:

خلال هذه الفترة.

1 ـ لا يقوم الفلسطينيون بمهاجمة أهداف في اسرائيل ولا يهاجم الاسرائيليون أي مكان، واسرائيل لا تهاجم أهدافا فلسطينية.

2 ـ اسرائيل تنسحب الى الخط الذي يتم الاتفاق عليه في داخل المناطق.

3 ـ اسرائيل تكف عن اعمالها الاستيطانية في المناطق ولا تقوم بشيء لتغيير الوضع هناك.

4 ـ الفلسطينيون يحصلون على حرية الحركة في شرقي القدس والضفة ومنها الى غزة والاردن ومصر.

5 ـ توضع رقابة دولية على الخروقات التي تُرتكب في اتفاق وقف اطلاق النار.

بالاضافة الى وقف اطلاق النار سيتم تطوير العلاقات التجارية بين اسرائيل والفلسطينيين، وتُقام مناطق صناعية مشتركة، وميناء ومطار في غزة، ويتم اطلاق سراح كل السجناء السياسيين.

الفلسطينيون يتعهدون بأن لا تصل الاموال التي ستحصل عليها حكومتهم الى حماس، وتكون هناك شفافية كاملة في استخدام الاموال التي تصل الى الحكم الفلسطيني والى المؤسسات الدينية.

الورقة لا تتحدث عن اعتراف صريح من حماس باسرائيل، ولكن كل بند فيها يعبر عن الاعتراف والتعاون، قولا وفعلا. حماس تظهر في هذه الوثيقة كصورة خجولة عن حركة فتح: هي تريد أن تسير مع اسرائيل وأن تشعر أنها بدونها، تريد عقد علاقات عاطفية معها ولكنها تود أن تبقى عذراء.

لو كانت هناك علاقة بين هذه الورقة وبين ما يقوله هنية ومشعل علانية، لكان من الممكن القول أن حماس قد بدأت اجراءات التهويد. كان بامكان الورقة أن تشكل قاعدة لمفاوضات حثيثة بين حكومة اسرائيل وحكومة حماس، ومن ثم الدخول لخمس سنوات في جنة عدن.

ولكن لا علاقة لذلك الآن. المحادثات التي تجريها قيادة حماس مع الاوروبيين الطيبين لا تهدف إلا الى تخفيف المقاطعة الاقتصادية الاوروبية لحكومة حماس. المقاطعة تقلق حماس، ولكنها ليست مقلقة لهم في هذه المرحلة بدرجة تدفعهم الى التوصل الى تسوية حقيقية مع اسرائيل.

عندما تصل ورقة سرية عبر الفاكس يرقص قلب كل صحافي، ويصل الى السماء. الأوراق مثيرة للانفعال. إلا ان السلوك العلني هو الذي يحدد المجريات.

ناحوم برنياع
محلل رئيسي في الصحيفة
(يديعوت احرونوت) 2006/12/22

البيانوني يشتبه في ان طهران تسعى الى نشر المذهب الشيعي في سورية

دمشق استعادت بعض أسهمها من خلال دعمها لحزب الله وحماس والجهاد وعلاقاتها الجديدة مع العراق

■ «كل إضفاء للشرعية على هذا النظام ولو بدرجة صغيرة يعني المس بجهود دفع الديمقرطة في المنطقة»، فسّر في نهاية الاسبوع الناطق بلسان البيت الابيض، توني سنوؤو، توبيخه للسناتور بيل نيلسون الذي التقى مع الرئيس السوري بشار الأسد. للوهلة الاولى يبدو أننا أمام حرص صادق وحقيقي من الادارة الامريكية لدفع الدمقرطة مع التفهم العميق للحاجة الى تأييد المعارضة السورية. «ولكن هنا بالضبط تبدأ المشكلة»، يكتب صحافي لبناني مناهض لسورية، «نظام بوش لا يعرف بالضبط من هي وما هي المعارضة السورية، هل هي الليبراليون الذين يدخلون ويخرجون من السجن، أم الاخوان المسلمون في سورية؟ من الذي يتوجب على الادارة أن تؤيده بالضبط؟». يتبين ان سورية أكثر تعقيدا مما يعتقدون.

التعرف على الصراعات الداخلية في سورية قد يبدأ مثلا ببيان نائب الرئيس السوري، فاروق الشرع، في نهاية الاسبوع الذي قال فيه ان الاختلافات بين سورية والسعودية شخصية، اي ان قطة سوداء قد مرت بين الأسد وبين الملك عبد الله، وان هناك حاجة فقط الى قبلة على الوجه لحل الاشكال.

الا ان الواقع بالطبع مختلف. بين دمشق والرياض أصبحت هناك هوة بعد مقتل الحريري، وتعمقت عندما رفضت سورية التعاون مع لجنة التحقيق الدولية. الملك عبد الله كان صديقا شخصيا للحريري وعائلته، وقد وعد ابنه سعد بأن يبذل قصارى جهده لوضع اليد على المذنبين. العلاقات بين السعودية وسورية ازدادت تدهورا بعد أن ألقى الأسد مع انتهاء الحرب اللبنانية خطابه الغريب الذي اتهم فيه مصر والاردن والسعودية مباشرة بخيانة القضية العربية لانهم انتقدوا حزب الله وأيدوا موقف الحكومة اللبنانية. الأسد أوضح بعد ذلك لمبارك أنه لم يقصد التعرض له. أما عبد الله ملك الاردن فلم يتلق أي توضيح، ومع ملك السعودية لم ينجح في التحدث.

في هذا الاسبوع ظهرت تصدعات في الخصام العربي مع الأسد: مبارك وافق على الالتقاء برئيس الحكومة السوري ناجي العطري الذي تحول الى مهرجان اعلامي في الصحافة السورية، وربما ايضا احتفالا تجاريا. الدولتان وقعتا على 20 اتفاقية تجارة وتعاون. حسب الادعاء السوري لم يكن هناك خصام بالمرة، والدليل على ذلك أن رئيس الاستخبارات المصرية عمر سليمان خرج ودخل الى سورية من دون عراقيل عندما أراد عقد صفقة التفاهمات مع خالد مشعل التي أدت الى وقف اطلاق النار مع اسرائيل في غزة.

الخروج من لبنان

مسار التصادم الثاني الذي سارت عليه سورية بعد المسار السعودي ـ المصري، كان مع لبنان. حتى ما قبل الحرب الأخيرة كانت هذه السنة سنة صعبة على الأسد. قرار مجلس الأمن 1559 الذي اتخذ في صيف 2004 كان بداية مرحلة جديدة طولبت سورية فيها بالانسحاب من لبنان. القرار اعتُبر في نظر دمشق خطوة هجومية من رفيق الحريري، وعلى ما يبدو قررت سورية إزالة هذا العائق وتصفية الحريري. الا ان هذه المسألة لم تتأكد بعد.

في أيار (مايو) 2006، بعد قتل الحريري بسنة وثلاثة اشهر، قام 275 مثقفا سوريا ولبنانيا بصياغة وثيقة عُرفت باسم «بيان بيروت ـ دمشق» نشرت في الصحف اللبنانية وفي مواقع الانترنت التابعة للمعارضة السورية. في هذا البيان يُطلب من الأسد تحسين علاقة سورية مع جارتها الصغيرة، أي اخراج مخالبه من لبنان. هذه هي نفس المعارضة السورية التي صاغت في عام 2000 عريضة طالبت فيها الرئيس الجديد بشار الأسد باجراء اصلاح دستوري واقتصادي في الدولة.

في البداية سمح الأسد لهذه المجموعة باجراء عدة مداولات في اطار الصالونات الأدبية، ولكن عملاءه سجلوا عدد سيارات المشاركين. بعد فترة قصيرة تم اغلاق النوادي وإقالة بعض المشاركين في المداولات من مناصبهم أو اعتقالهم. بعد «بيان بيروت ـ دمشق» حرص أتباع الأسد على إظهار اعضاء المعارضة في صورة العملاء للولايات المتحدة، أو على الأقل عملاء للحكومة اللبنانية. هكذا على سبيل المثال كتبت الصحافية ماريا معلوف من صحيفة «تشرين» بأن أحد المعارضين الهامين وهو ميشيل كيلو، قد حصل على مبلغ من المال من الوزير مروان حمادة، أحد أنصار فؤاد السنيورة. كيلو قدم ضد معلوف دعوى تشهير، إلا أنها لم تُبحث حتى الآن.

حساب مفتوح

ولكن معارضة الأسد الابن لا تنتهي عند هذا الحد. احد اركان المعارضة هو حركة الاخوان المسلمين السورية التي تطالب بإزالة نظام الأسد. للحركة حساب دموي صعب مع عائلة الأسد لان والده حافظ ذبح 25 ألفا من اعضائها في عام 1982 في مدينة حماة. ولكن هذا ليس السبب الوحيد. الاخوان المسلمون في سورية هم معارضون لايران ايضا لان رئيس الحركة في الدولة، المحامي علي صدر الدين البيانوني، يشتبه في أن طهران تسعى الى نشر المذهب الشيعي في سورية.

الاخوان المسلمون هم حركة سنية، وعلى هذه الخلفية يُفهم قلقهم. ما هو غير مفهوم هو أن الحركة تستطيع أن تؤيد حماس والجهاد الاسلامي الفلسطينيين اللذين يتلقيان الدعم من ايران في نفس الوقت. والأمر الأقل وضوحا هو كيف يمكن للاخوان المسلمين السوريين انتقاد نظام الأسد الذي يدعم حماس.

هناك توضيحات لهذه التساؤلات. بعض هذه التوضيحات غير صحيح مثل ادعاء بأن الاخوان المسلمين في سورية بأن حماس هي اختيار الفلسطينيين والتضامن معها ليس على أساس ديني وانما قومي. ولكن التوضيح الأقوى هو أن الاخوان المسلمين لا يؤيدون حماس فعلا ولا الجهاد الاسلامي لان هذه الحركات مدعومة من قبل سورية.

على حد قول مصدر مصري مقرب من الاخوان المسلمين في مصر طُلب من قائد الحركة مهدي عاكف قبل سنة على يد النظام المصري بأن يطلب من الاخوان المسلمين في سورية بأن لا يتعرضوا للأسد. عاكف استجاب للطلب بصورة مفاجئة ولكن نظراءه السوريين عارضوا. الصيغة المجردة القائلة أن كل الحركات الاسلامية موحدة وتعمل من خلال دوافع واحدة لا تنطبق على سورية، ولا على غيرها حتى.

فترة عذوبة في العراق

بين حركة معارضة واحدة واخرى، وبعد الانهيار الكبير في لبنان وجدت سورية نفسها أمام فترة عذبة كبيرة في علاقتها مع العراق تحديدا. بعد ربع قرن من القطيعة بسبب دعم حافظ الأسد لطهران في حرب ايران ـ العراق، وبعد أن شاركت سورية في التحالف الدولي المناهض للعراق في حرب الخليج الاولى، وافقت حكومة بغداد الجديدة على عقد العلاقات مع دمشق. والآن إبان قيام العراق باستئناف علاقاته مع سورية ينتصب فاروق الشرع أمام الدول العربية ليقول لها ويُذكرها لمن تدين بالشكر. الشرع قال ان سورية هي التي شاركت في الحرب ضد العراق الذي احتل الكويت. وفي نفس الاسبوع الذي يُذكر فيه الشرع الدول العربية بواجبها يخرج الأسد ببيان للعالم حول استعداده للتفاوض مع اسرائيل ملقيا القفاز أمامها، لا بل ويرسل وزير خارجيته وليد المعلم لقول كلماته العذبة في صحيفة «واشنطن بوست».

في موقع الانترنت التابع لمحطة «العربية» الفضائية التي نقلت تصريحات الشرع، كان من الممكن ان تجد الرد التالي من أحد المشاركين في التعليقات: «ويلكم أيها العرب، فسورية هي التي أنقذتكم من الاحتلال. الى أين كنا سنصل من دون سورية، والآن فلتذهبي يا سورية لتحرير الجولان». هذا ليس ردا منفردا. الأسد سمع مثل هذه التصريحات بصورة كثيرة في لبنان لدرجة أنه اضطر الى تغيير طريقة حديثه عن هضبة الجولان وبدأ يتحدث فجأة عن خيار آخر لتحرير الهضبة، ان لم يتمكن من تحريرها من خلال السلام.

الآن لم يعد واضحا من يريد ماذا. واشنطن تعارض إضفاء الشرعية على سورية، ولكنها سمحت لبغداد باستئناف العلاقات مع دمشق. هي لا تعتقد أن على اسرائيل اجراء المفاوضات مع سورية، ولكن تقرير بيكر ـ هاملتون يطالب باشراك سورية في «مراقبة» ورعاية العراق، الأمر الذي يعطيها أحد المفاتيح المركزية للسلام الاقليمي. سورية تريد عملية سلام مع اسرائيل وتريد الجولان، ولكنها تدعم حزب الله وحماس والجهاد الاسلامي ـ كوزن مضاد لمعارضة الاخوان المسلمين، أو كوزن مضاد للروافع التي تملكها مصر والسعودية في المناطق. اسرائيل ستجد صعوبة في سبر غور هذه الحسابات، وهي ليست ذات صلة في القضية المركزية الآن: التفاوض مع سورية أو عدمه؟ حماس وحزب الله يسألون هذا السؤال ايضا، وعلى اسرائيل أن تعطيهم الجواب، ذلك لانه في كل الاحوال تخوض هذه الأطراف الثلاثة الحرب ضد بعضها البعض منذ سنوات طويلة.

تسفي برئيل
مراسل الصحيفة للشؤون العربية
(هآرتس) 2006/12/22

وقف اطلاق نار على الطريقة الشرق اوسطية

اسرائيل تقف مكتوفة الأيدي أمام الصراعات الداخلية الفلسطينية والدعوات السورية للمصالحة وقريبا ستجد نفسها في مجابهة مع الجانبين اللذين فقدا الأمل بالخيار السياسي

■ مليار شيكل في الشهر. 12 مليارا في السنة ـ هذا هو الثمن الذي ستدفعه اسرائيل اذا عادت الى ادارة حياة الفلسطينيين في المناطق. هذه ليست أرقاما في الهواء. هذه حسابات داخلية تجري في السر داخل أروقة جهاز الدفاع كجزء من احتمالية أن تجد اسرائيل نفسها مسؤولة مرة اخرى عن حياة الفلسطينيين في الضفة وغزة. صحيح أن هذه الاحتمالية غير واردة في حسابات ديوان رئيس الوزراء، ولكن الاحتمال أصبح مقنعا في أجزاء لا بأس بها من الجيش. سيكون علينا أن نعود الى القطاع.

في قيادة المنطقة الجنوبية يتابعون بقلق سلسلة لا بأس بها من المعطيات التي ترد حول ما يحدث داخل قطاع غزة. على سبيل المثال، يتبين أن كمية الاسمنت ومواد البناء التي دخلت الى القطاع خلال الشهر والنصف الأخيرين قد ازدادت بنسبة 20 ـ 25 في المئة. من الصعب الافتراض أنه في الفترة التي تندلع فيها المجابهات في الشارع الفلسطيني تحديدا، يقرر طرف ما فجأة استئناف بناء البنى التحتية والمجاري وصرف الاموال على البناء العام. كما أنه طرأ تباطؤ على النشاط الاقتصادي في القطاع بسبب المجابهات الداخلية. في فرقة غزة يترجمون هذا النهم للاسمنت على أنه يرمي الى بناء التحصينات و«المحميات الطبيعية» على الطراز اللبناني في شمالي القطاع وجنوبه.

ولكن أحدا ما في مقر الحكومة في القدس يفضل اغلاق فم الجيش. على الضباط ألا يتحدثوا حول ما يجري في غزة. أطراف سياسية في اسرائيل تفضل التعامل مع المجابهات الفلسطينية الداخلية العنيفة على أنها مجابهة بين قبيلتين غير معروفتين في سوازيلاند وليس كمجابهة سياسية حاسمة وحادة على مسافة خمس دقائق من غرفة نوم كل واحد منا. التعليمات التي يتلقاها الجيش تتلاءم مع ذلك: من المحظور علينا، لا سمح الله، أن نظهر في صورة من يتدخل لصالح طرف دون آخر. ولكن فعليا، من خلف هذه التعليمات يختبيء في الواقع عدم الفعل المطبق. حكومة اسرائيل لا تفعل أي شيء. تجلس مكتوفة الأيدي محدقة بالفلسطينيين الذين يقاتلون بعضهم بعضا منتظرة حدوث الأعجوبة. وكأن هذا الامر لا يتعلق بنا أو يمسنا. وكأنه لا تحدث في غزة معركة حسم ستؤثر بالضرورة على حياتنا.

التعرضات الفلسطينية الداخلية قد تؤدي الى حدوث عدة اوضاع متطرفة. الامكانية الاولى: انهيار السلطة ومغادرة أبو مازن للساحة وحل الحكومة الفلسطينية واندلاع حالة من الفوضى. اسرائيل تُجتذب الى هذا الفراغ باعتبارها مسؤولة عن السكان الفلسطينيين. وبالفعل، في المحادثات التي جرت مؤخرا مع وزير الاستخبارات المصري عمر سليمان وأعوانه، عبر المصريون عن يأس مطبق من الوضع الحالي، سواء لأن أبو مازن يجد صعوبة في الامساك بالخيوط، وخلال عام حسب تقديراتهم قد ينهي منصبه السياسي، أو بسبب عدم تجربة أتباع حماس السياسية الذين يقودون السلطة الى الكارثة، حسب رأي المصريين.

الوضع المتطرف الآخر: حماس تنجح في إخضاع فتح وتتحول الى الطرف المهيمن في المناطق. هذا الوضع بالنسبة لاسرائيل هو وضع سياسي ـ أمني جديد من نوعه.

وضع متطرف ثالث: في لحظات الضائقة والازمة الداخلية يبذل الفلسطينيون محاولات لجر اسرائيل الى الداخل، الى داخل المناطق، لمجابهة مسلحة. هم سيحاولون القيام باستفزازات كبيرة مثل الاطلاق المكثف لصواريخ القسام التي تصيب المواطنين الاسرائيليين، أو ضرب السياح في بيت لحم خلال عيد الميلاد، أو كل خطوة قد تجر اسرائيل الى رد عسكري مكثف ـ الامر الذي يُوحد الصفوف في الجانب الفلسطيني.

وبالمناسبة، كمية صواريخ القسام التي أطلقت على اسرائيل منذ وقف اطلاق النار، وسقطت بصورة مؤكدة داخل اسرائيل، أقل مما تناقلته وسائل الاعلام. منذ السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سقطت في اسرائيل عشرة صواريخ قسام وليس ثلاثين. هذه الصورة قد تتغير بصورة دراماتيكية عندما يقرر الفلسطينيون اجتذاب اسرائيل الى الداخل.

هذه الاوضاع المختلفة ليست خيالية بالمرة، الجيش يستعد لها. في قيادة المنطقة الوسطى مثلا يستعدون لوضعين أساسيين. الاول: وضع العودة الى الانتفاضة الشعبية. والثاني: اندلاع العنف مع انتفاضة شعبية الامر الذي يُجبر الجيش على اعادة احتلال المدن الكبرى في الضفة. أما في قيادة المنطقة الجنوبية فيستعدون لاوضاع أساسية اخرى ملائمة للقطاع. مثل احتلال مربعات سكانية مختلفة بدءا من الاحتلال المحدود وانتهاء باحتلال كل القطاع. الملفات جاهزة، وهناك أسماء شيفرية للعمليات، والآن قد يبدأون في التدرب كما يجب.

في غضون ذلك تصبح غزة أقرب الى لبنان بصورة متزايدة. ليس فقط بسبب وجود عناصر حزب الله هناك، أو بسبب «شهداء الأقصى» الذين لم يعودوا ينتمون لفتح، وانما يتلقون رواتبهم وتعليماتهم مباشرة من حزب الله في لبنان، بل لأن طبيعة المجابهة الداخلية في غزة تُذكر جدا بما حدث في لبنان: ميليشيات مسلحة تنتمي لاحزاب سياسية وتقاتل بعضها بعضا في حرب الجميع ضد الجميع.

خطاب أبو مازن في السادس عشر من كانون الاول (ديسمبر) الذي دعا فيه في السياق الى انتخابات جديدة كان رصاصة البدء في العملية التي تهدف الى اسقاط حكومة حماس. ولكن، لا أبو مازن، ولا قيادة حماس ينوون التدهور الى وضع الحرب الأهلية. صورة الوضع أشبه بالسير على الحافة حيث لا يرغب أحد في القفز داخل الهوة، وخوض مجابهة شاملة في حرب أهلية. اذا هناك مجابهات بين مجموعات مسلحة معروفة ومحددة تقاتل بعضها بعضا. ولكن هذا الصراع المسلح لم يجر المجتمع الفلسطيني كله.

انخفاض في شعبية حماس

ثلاثة استطلاعات نُفذت في هذا الاسبوع على يد جهات استطلاعية فلسطينية، تشير الى التعادل بين أبو مازن ومنافسه المحتمل على الرئاسة اسماعيل هنية. استطلاع مركز الشقاقي الذي أُجري في الثامن عشر من كانون الاول يشير الى تكافؤ تام (46 في المئة لأبو مازن و48 في المئة لهنية). ولكن عندما يضعون في الاستطلاع المرشحين الذين يحظون بالشعبية واحدا قبالة الآخر ـ مروان البرغوثي عن فتح وخالد مشعل عن حماس، يفوز البرغوثي بصورة ساحقة (57 في المئة للبرغوثي و36 في المئة لمشعل). 61 في المئة من الفلسطينيين وفقا لهذا الاستطلاع يؤيدون تقديم موعد الانتخابات. ولكن 48 في المئة منهم يريدون استقالة حكومة حماس، و47 في المئة يعارضون ذلك. أما بالنسبة للمجلس الوطني: 42 في المئة يؤيدون فتح، 32 في المئة حماس، 12 في المئة الاحزاب الاخرى، و14 في المئة هي اصوات عائمة.

في الاستطلاع الذي أُجري يوم الاثنين من هذا الاسبوع بمبادرة المركز الفلسطيني للابحاث السياسية، ظهر انخفاض في شعبية حكومة حماس: 33 في المئة يؤيدونها، مقابل 42 في المئة قبل ثلاثة اشهر. ولكن الدعم الجماهيري لابو مازن قد انخفض هو الآخر: من 55 في المئة قبل ثلاثة اشهر الى 40 في المئة اليوم. كل الاستطلاعات تشير الى ان فتح وحماس تسيران كتفا الى كتف. الساحة فلسطينية ولكن اللعبة اقليمية. نحن هنا أمام مجابهة بين محورين. محور الولايات المتحدة واوروبا واسرائيل يقف من وراء أبو مازن، ومحور دمشق ـ طهران يقف من وراء حماس. زيارة هنية الأخيرة لهذه العواصم أظهرت هذا المحور بصورة علنية، ولكن الفلسطينيين هم مجرد أداة لعب هزلية في الحكاية السياسية. مصيرهم ليس هاما كثيرا لأي أحد. هم يطلقون النار على بعضهم البعض؟ هذا ثمن الصراع بين قوى أكبر منهم. أهداف العنف هي بالأساس اجهزة الأمن في الجانبين. ولكن الضحايا ليسوا بالضرورة من الناس العسكريين. أولاد العقيد بعلوشة من المخابرات العامة قُتلوا على أيدي أتباع حماس عن قصد وسبق إصرار. عناصر حماس الذين وقفوا في طريق سيارة بعلوشة نزلوا من السيارة وتأكدوا من قتل الاولاد. بعلوشة لم يُقم بيت عزاء لان الحساب بقي مفتوحا والانتقام آت على الطريق. الى العنف السياسي تضاف كذلك دائرة عنيفة اخرى: دائرة عمليات الانتقام والثأر. وهذه مسألة سيكون من الصعب ايقافها.

في هذه المجابهة تم تجاوز الخطوط الحمراء كثيرا: اطلاق النار على هنية وعلى وزير الدفاع وعلى وزير الخارجية وعلى مقر الرئاسة واختطاف سفيان أبو زايدة. بذور الفوضى قد زُرعت. التقدير في اسرائيل: العنف سيتواصل لمدة طويلة مع فترات هدوء على شاكلة عمليات وقف اطلاق النار على الطريقة الشرق اوسطية.

ليس في جيب ايران

الساحة الفلسطينية ليست الساحة الوحيدة التي تقترب اسرائيل فيها من مفترق طرق، ومع ذلك تفضل الجلوس وانتظار حدوث الأعجوبة. التقديرات الواردة في اسرائيل تشير الى ان سورية على شفا الحسم. سورية سارت في مسارين حتى اليوم في مواجهة اسرائيل: المسار العسكري والمسار السياسي.

المسار العسكري يتحدث عن تعاظم القوة العسكرية وتحالف استراتيجي مع ايران ومؤامرات في لبنان ومساعدة ودفعة للارهاب في المناطق. أما المسار السياسي فهو مسار الرسائل السلمية التي تصدر عن وزير الخارجية وليد المعلم. في المسار السياسي توجد ايضا رسائل سرية لاسرائيل والولايات المتحدة، وتلميحات متنوعة من اجل التوضيح ان سورية لا تغلق الأبواب، وأن ايران ليست الخيار الوحيد.

المؤشر الصارخ في هذا السياق: بعد الزيارة التاريخية التي قام بها وليد المعلم للعراق قبل شهر، رغب الايرانيون باستغلال اللحظة السانحة واقامة محور جديد سوري ـ ايراني ـ عراقي. الايرانيون دعوا الى قمة ثلاثية وحاولوا تجنيد السوريين لهذه المبادرة، إلا أنهم رفضوها قائلين: نحن لسنا تابعين لايران ولا نقوم بحرق كل الجسور مع الولايات المتحدة. ولكن المعلومات القادمة من الغرب تشير الى ان السوريين يقتربون من نقطة الحسم التي تقول ان لا جدوى من محاولة حل الصراع بالطرق السياسية وان من الواجب الاستعداد للخيار العسكري. متى سيتحقق هذا الخيار؟ هذه مسألة سنوات. ولكن الاستعداد السوري يبدأ في التسارع.

منذ حرب لبنان قامت كل من اسرائيل وسورية وفقا للمصادر الاجنبية بتبادل التهديدات الواضحة باستخدام القوة. مصادر عربية قالت بأنه بعد تهديد